مصرع البخيل

للكاتب الانجليزى سير أرثر كونان دويل
بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة

روى دكتور وطسن مسجل أخبار شرلوك هولز ومغامراته قال :

فى هذه الليلة من أخريات الليالى فى شهر ديسمبر سنة — ١٩ كان هولز منشرح الصدر قرير العين ، كعادته كلما دنا عيد الميلاد . كان لا يحب الديكة الحنيذة ولا يميل إلى حلوى البودنج ، وهما اللونان اللذان شغف بهما كل انجليزى تحت السماء ، ولكنه كان شديد الاكتراث باعداد وجبة العيد ، ويكثر من الاستعداد لمشاء أمسية عيد الميلاد ، ويحتفى بها ويحتفل أيما احتفاء واحتفال . فكانت مسز تيرنر منهمكة فى تسوية الديك ، وتدخين لحم الخنزير ، وخلط الأفاويه والازار مع الزبيب والبندق والجوز واللوز ... وكان هولز يفرك يديه ، ويدخن غليونه الأبدى . وكان دأبه أن يبدأ الحديث بنفسه ، ولا يبيح لأحد أن يبغته أثناء صمته . فقال :

— أظنك بعد قرانك السعيد الذى كان ثمرة لمغامرة الكنز الدفين لم تشغل نفسك بالحب . . . ؟

فابتسمت وقلت : الحب ... ؟ لا أظن ... أتريد حب الزوجة يامستر هولز ؟

فضحك وقال : أقصد إلى الهوى الذى يتفرع منه العشق ، الذى يصفه ما كس يبرتون فى قصصه كما وصفته شارلوت برونته وجورج أليوت ... العشق الذى يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه

فتجاسرت على مستر هولز ممازحاً وقلت : إننى رجل متزوج ولكنك يامستر هولز رجل أعزب فهل ... ؟

فقال هولز وقد أبرقت عيناه بريقاً عجيباً : ليس الحب من طبيعتى . الشفقة نعم . الرحمة نعم . حب الانسانية أى نعم . أما الحب الذى تلمع إليه فلا ، ثم لا ، ثم لا ، لأنه قرين بادخال الضيم على المروءة واستشعار الذلة لمن أطاف بالعشيقة كأهلها وذويها

فقلت : ولكن المناقب التى ذكرتها كالرحمة والرقة تنشعب كلها من أصل الحب .

فقال : صحيح ، ولكن ... ثم تناول جريدة التيمس وناولنى إياها ، وقد أشار بعلامة على نبذة قصيرة هذا نصها : « وقد اشتغل مستر هولز فى تحقيق هذه القضية فأغرب فيها على عادته وافترض فيها افتراضاً بعيد الموافقة للواقع ، ففوت على رجال البوليس الرسميين فرصة القبض على المتهمين الذين لا شك قد اتخذوا سبيلهم فى البحر عجباً ، فاستقلوا باخرة كبرى تمخر الآن عباب المحيط فى طريقها إلى نيويورك ، ولا يزال مستر هولز يمزج أخيلته بألفاظه البطيئة ودخان شبقه فى إحدى الغرف الموطأة فى مسكنه العامر ببيكر ستريت » . ففاظتنى هذه النبذة المسممة وقلت :

— لا تبتئس يا مستر هولز ولا تحزن ، فان الدنيا لا تخلو من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ، ومن سامع طاعن ، ومن منافس مقصر

فضحك حتى بانت نواجذه وتجلت أسارير وجهه وبدا لونه كالعاج وقال :

— كما أنها لا تخلو من ذى سلامة فى النطق وصحة فى النظر وصدق في الفصد، ومن رجل شديد المحاماة عن حقوق الضعفاء ، والمطالب بدماء القتلى قليل التسرع إلى أعراض العاملين . فلندع أبطال سكوتلانديارد فى غيهم . ولكن قل لى : هل لاحظت أثناء زيارتك الأخيرة حديقة الحيوان كيف أن مِنْج طفل الغوريلا بدأ يدق صدره باحدى يديه على طريقة يتبعها كل أبناء جنسه حين تشرف على سن المراهقة ؟ فقلت له : نعم . . .

قال : لقد بدأ دور الدق على الصدر منذ ثلاثة أشهر ، أما الآن فهو يدق دقاً منظما بكلتا راحتيه ونحن واثقون أنه اتبع غريزته وأصغى إلى صوت وراثته ، فلم يعلمه أحد ولم يلقنه أحد من الانسان أو الحيوان تلك الوسيلة التى تنم عن مراهقته واستكمال ذكورته . إن دق الصدر علامة على الاهتياج بأنواعه ، عند بعض طوائف البشر وبعض فصائل الحيوان ، هكذا فعلت أنثى الغوريلا مونيا وذكرها موك . ولكن مونيا كانت أشد حذراً من موك ، لأنها كانت تتقى أن تؤذى ثديها ، فهى لا تنسى فى فورة الهيجان ضرورة الحرص على بدنها . والذكر يلطم خديه لا براحة مبسوطة بل بقبضة اليد مجتمعة. أما موك ومونيا ومِنج فقد لطمت وجناتها ودقت صدورها براحة مبسوطة . وإن لذلك لصوتاً رهيباً فى الحديقة ، فما بالك به وسط الغاب فى هدوء الضحى أو سكون الليل

وكنت على شدة إعجابى بحديث هولمز فى كل وقت وانشراح خاطرى بهدوء باله ، قد بدأت أمل حديث القردة ، وملاحظة لطمها ودقها صدرها ونعيبها واغتلامها حتى كدت أقاطعه . . . فلم أتمكن من ذلك قبل أن قال : ألا تعلم أن جاكلين رضيعة الشمبانزى تُنشأ الآن ومِنج فى قفص واحد . فسوف نرى ما تكسب منه غداً . . .

فى تلك اللحظة أنقذت مسز تيرنر موقفى بدخولها وقالت :

إن سيداً بالباب يطلب لقاء مستر هولمز

فقطب هولمز جبينه وقال : فى عيد الميلاد ، عند سماع الأجراس العذبة ، أجراس العيد ، طارق يريد لقائى ؟ !

فقالت مسز تيرنر وكانت روح الدعابة قد اخترمتها بعد طول المعاشرة والعيشة فى حاشية هولمز المرح :

— فى الحق وبالصدق ، إنه يشبه سانتا كلوز ، فلعله يحمل إليك هدية . . . ولكن شيئاً واحداً يزعجني بشأنه ، أحب أن ألفت إليه نظر السيدين (تقصد إلى هولمز وإلىّ) إنه لا ينفك يدق صدره بقبضة يده ، ويلطم خده براحة كفه على طريقة مدهشة ، لم يسبق أن رأيتها لأحد من الناس . ربما بعض الزنوج فى معرض كوفنت جاردن أو كريستال بلاس . أما الناس . . .

فدهشت ونقضت غزلى وغضضت بصرى ولم أجرؤ أن أحدق فى وجه ذلك الرجل العجيب الذى يكاد يطلع على الغيب ، ولكننى لم أشأ أن أفجأه بسؤال لأشفى غليل استطلاعى . . . بيد أنه أذن للرجل أن يدخل علينا، ليرى ما شأنه ، فاستأذن على خلوتنا رجل ملتف اللحية كث العارضين ، متخلع الأسنان ، منضن الوجه . وجلس فى المكان الذي أشار إليه هولمز ؛ وما لبث الرجل أن

رفع حاجبيه الكثيرين فانطويا على جبين تكاثرت تجعيده حتى لكأنها أسطر قاتمة فى صفحة من سحر القدماء ، ثم أخذ يلمث ويقطع الألفاظ ويسرد حديثاً لم تستبن معانيه لغموض تراكيبه فقال له هولمز : هوّن عليك أيها الشيخ وحاول استرداد هدوئك ما أمكنك ، فلا تحل قضية بعجلة وإنى ألمح فيك الرجل الحليم والشيخ الركين . فما هذا الحزن الذى نقلك إلى طبع الصبيان والنساء وإلى أفعال المجانين ، تكاد بعد دق صدرك ولطم خديك تشق جيبك وتنفض حبوتك وتبكى كما يبكى الحدث الغرير وتندب كالنوائح

فقال الرجل : ولدى ! ولدى الوحيد أيها الرجل المنقذ، زين الشباب لم تقع العين على أحسن منه وأعقل

فقال هولمز : إنك بلاريب من مقاطعة كشمير فمذ أى عهد استوطنت هذه البلاد ؟

قال الرجل : انى نزحت من الهند منذ ثلاثين عاماً وكان ابنى رضيعاً ، فنما وترعرع تحت سمائكم وأثرى لحسابه غير قانع بما ربحت من مال ، ولم يكن سفيهاً ولا مبذراً ، وكان مقتصداً لا أنكر ذلك ، حتى أنه لو طلب إليه مال ولو فى مصلحة واجبة الأداء كدفع الضريبة أو سداد دين مستحق تربد وجهه وطار الغضب فى دماغه ، فيمنع ويعصى ويأبى. ولي أخت فقيرة معسرة ، تبعتنا بولديها ، لأنها ترملت ولم يطب لها العيش فى ظلال الفاقة، وأحد ولديها وهو يصغر ابني نشأ فى فقر مدقع فشغل عن التعليم بالجوع، وطمع فى مالنا عن خصاصة، فكنا نبره ونرفده حينا ونمنعه ونحرمه أحيانا . وكان عطائى إياه أكثر ما يحنق ابنى شاهين لال . ولم يزل معذباً أياماً حتى ينسى المال القليل الذى فرجت به كرب ابن عمته

ومنذ أسبوعين غادر ابنى بيت الأسرة إلى قرية ديرهام ليجمع مالا من ثمار ضيعة لنا فيها أثمار الشليك التى تطبخ وتجعل مربى فى أعقاب من الزجاج . وكانت آخر مرة رؤى فيها ، وهو فى سيارة مأجورة نقلته من محطة ديكورثى جنكسن فى طريقه إلى تلك القرية . ثم لم نقف له على أثر

فهمهم هولمز : اختفاء غريب حقاً ! فهل أبلغت خبر اختفائه للشرطة ؟

فقال الهندى : أنا جوهر شاه لال أشهد أنى لم أر قط شرطة أغرب وأعجب من شرطة هذه البلاد . فساعتهم بيوم وبومهم بشهر وشهرهم بعام . وإن روح الدعابة فيهم لأقوى من موهبة الذكاء . والسخرية من المنكوبين أمثالى أنكى من عاطفة الواجب . وقد أصبح أداء الأعمال لديهم نوعاً من حركة الآلات التى لا تشعر ولا تحس

فقال هولمز باسماً : على رسلك أيها الرجل الموتور إنك لا تزال من رعايا التاج والطاعة عليك واجبة فى حق السلطة التنفيذية ، التى لولا قوتها ما استطعت أن تعيش فى هذه البلاد آمنا فى سربك مطمئناً على مالك وحياتك

فقال الهندى : أى أمن هذا ؟ كان أهون علىّ أن أموت وأدفن أو أحرق بديلاً من ولدي الوحيد. لقد قلت هذا القول نفسه للمفتش جريفين ، فلم يهتز ولم يثر . ولما ذكرت له اسمك بعد يأسى من معونته وامتعاضى من طرائق عمله قال لى : عليك به . عليك بمستر هولمز إنه خير من يجلو غمرض هذه القضية ويحل عقدتها . وليس لك عمل عندنا ، فقد استنفدنا وسائل البحث حتى البركة الآسنة نزحنا ماءها ، والقصر العتيق قلبناه رأساً على عقب وكدنا نهدم

جدرانه ، ثم أعرض عنى . وما هالنى إلا نبذة قارصة قرأتها فى جريدة هذا النهار ، تسلقك بألسنة حداد فهرولت إليك

فقال هولمز : وهذا أيضاً لا يبرر نقدك ، فقد أسدى هؤلاء الرجال الأفاضل للعدل خدمات لا تنسى ولا تقدر . ولكن أمهر الرماة وأحذقهم وأصوبهم قد يخطئ الهدف مرة أو مرتين فلا تكون خيبته سبباً فى نسيان إصابته مرات . أنت تتجر فى السجاد واللؤلؤ والأفاويه ؟

— نعم . من قال لك ذلك ؟

— لا تجعل لهذه الظنون شأنا

— ولكنها حقائق لا ظنون فقد ورثت تجارة السجاد الفارسى عن والدى . وهويت تجارة اللؤلؤ هواية عشقتها تقليدا لصديقى صاحب هارنهرو؛ أما الأفاويه فيبعث بها إلىّ واحد من ذوى القربى يقيم منذ ثلاثين عاما فى بطاوى عاصمة جاوه . فقلت للمستر جريفن إنك تقفنى هذا الموقف وتحملنى على هذا المركب ثم تخذلنى هذا الخذلان وتغشينى مثل هذا الذل ، ولو حيرة الخوف من العقاب . إننى أنزل عن نصف مالى بل كله لو أنك رددت إلى ولدى

فقال لى المفتش : أشروع فى رشوة أيها الأجنبى ؟ فقلت : لست وحقك أجنبياً ولا غريباً .

فقال هولمز : دعنا من حديث هذا المفتش جريفن لأنه من أصدقائى الأعزة ويؤلمنى أن تسمى بيننا ، فطالما أسدى إلى خدمة جلى . وقل لى ما مقدار تلك الثروة التى تتيه بها وتبذلها لنجاة ولدك ، فصمت الرجل وتنهد وتلفت يمينا وشمالاً كعادة أهل الشرق فى الحذر ونظر إلى نظرة مريبة . ثم قال : إن قلت مائة ألف جنيه أكون كاذبا ، أو مائتين أكون مقصراً . فسأل هولمز إنك تحمل ميزان رصيدك فى أحد جيوبك . أتملك نصف مليون يامستر لال ؟ فتنهد الهندى وتلفت وقال : قد . قد يكون هذا الرقم قريباً من الحقيقة

فقال هولمز : فاذا مت من غير عقب ؟

فانتفض الرجل وقال : حاشا لكالى وفشنو وكريشنا أن تصح كهانتك . قال هولمز : لا عليك؛ فلا تتطير من سؤالى ، بل أجبنى ! إن مت من غير عقب ، فمن يرث مالك ؟

فبكى الرجل حتى بلل لحيته وقال : ترثنى تلك اللعينة العوراء أختى شاهجيهان كريو

فقال هولمز : ولا أحد سواها

فقال الرجل : زوجتى تحرم وتحرق وتكب على مناخرها فى النار ولا تنال روبية واحدة . فقال هولمز : تفضل يادكتور وطسن وناولنى هذا المجلد الأحمر البالى على الرف الثالث فى الصوان الخامس من اليسار وهو باسفل المطبوعة التاسعة من دائرة المعارف ج ٢٤ حرف ميم ونون . فلما ناولته المجلد المعهود فتحه وقرأ بعض نصوصه وقال :

أية شريعة للوراثة هذه ؟ تكلم يا وطسن ، إن للمرأة فى الشرق مكانة سامية وإن كانت تحرق بعد وفاة بعلها ، فهلا كها قرين ترملها . ومما يدل على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالآلهة التى لا شىء أعظم منها ، وبالشى إلى أقدس لمياكل ، وبصدقة ماله فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ، فان استحلف بالطلاق يغضب ، ويرفض ، وإن كان المحلف قاضياً جليلا أو أميراً مهيبا أو حاكما مطلقاً ، ولم يكن الرجل يحبها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر قليلة النسب . ولكن هذه

المرأة المسكينة تفقد وجودها وكرامتها يوم يموت بعلها ويلقى بها من حالق ، وعلى ذكر النساء يا وطسن أتعلم أنني فكرت كثيراً فى الأخوات الثلاث من أسرة رونطه شارلوت واميلى وآن[1] ولست أدرى إلى الآن أيهن أذكى وأقسى قلباً وأكثر تحملا للآلام ، فظهرت علائم القلق على الهندى وتململ فى مقعده ، ولكن هولمز لم يلتفت إليه ولعله كان مكتفياً بدرسه عن كثب . ثم قال لى :

— أتعلم أن فى قصة (جان بار) التى دبجتها براعة شارلوت — حديث المرأة التى تصدق أحلامها، فاذا رأت فيما يري النائم شيئاً ، فلا بد أن يقع على الحالة التى رأتها ، كأنها تطلع على الغيب ؛ وتعلم سلفاً حوادث الأيام ، فلو كانت هذه الرائية على قيد الحياة لكشفت لنا القناع عن كثير من الجرائم . .

فابتسمت وقلت : لعلك تأثرت يا مستر هولمز بأعمال تلك الجمعية التى يبحث أعضاؤها العلماء فى أسرار الروح والنفس على طريقة تثير الخواطر .

فقال هولمز : إن عقلى كالخزانة المفتوحة تتلقى كل ما تستودعه من الصور والآراء . ثم حول وجهه فجأة نحو الهندى وقال له : وابن أختك هذا البائس المنبوذ أما زال ؟

قال الهندى : نعم ما زال مدقعاً محروماً منحوس الحظ ممنوعاً

قال هولمز : أتراه يعشق فتاة من بنات جنسه أو خريدة أخرى من الجنس الأبيض ؟

قال الهندى : إنه منهمك فى حب النساء من سائر الأجناس يعشقهن ويبتذله فى هواهن ، بقدر ما يبغضه الرزق .

قال هولمز : وهل يزور تلك الضيعة التى تؤوى أكلها من الأشرار ، أو له بها سكن ؟

قال الهندى : كان يختلف إليها إذ كان وولدى صبيين يلهوان معاً ويلعبان بالأكر والصوالج . وفرق بينهما الفقر . وقد حاول استدراج ولدى ، وقد عثرت مرة على ورقة مكتوبة بالهندستانى فيها هذه الكلمات: «ابن خالى العزيز، لقد تأملت شأن الدنيا فوجدت أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بحبيبه العاشق بطلبته ووجدت شقوة الطالب المكدى وغمه ، فى وزن سعادة الطالب الناجح وسروره ، ووجدت العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فان موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

ووجدتك قد ضربت بالعشق عرض الحائط فكنت البخل من نفسك . وعشقت الرزق وجمع المال ، حتى أبغضت كل شئ . وليس المال بامرأة ولا يعشق إلا النساء ، ورأيت حبهن من أكبر أسباب اجتماع الخير . وها أنت ذا قد امتحنت جمع المال ثلاثين عاماً ، فهلا جربت حب النساء شهراً واحداً ؟ »

وقد لاحظ هولمز غرابة هذا الخطاب ، فعبس ثم ابتسم وقال أخيراً للهندى :

— وأين ابن أختك الآن ؟ وهل شغلته الشعوذة أو السحر يوماً ؟

وإننا لكذلك وإذا بالهندى المتهدم يقفز من مقعده ويدق على صدره بيديه كمن مسه الجن . ثم أخذ يعول وينوح ويقول :

— أتؤمن بالسحر يا مستر هولمز ؟ أتؤمن بالأحلام التى يراها النائم فيما يري ؟

فحاولت أن أبادل هولمز النظرات ، ولكنه لم

(١) حنه أو حنينة

يعبأ بي وركز عينيه اللامعتين فى وجه الرجل ، ثم قال ببطء :

— السحر ... لا . أما الأحلام فنعم . ولكن مادخل حديث السحر والرؤى فى استخفاء ولدك ؟

فقال الهندى : اسمع يا مستر هولمز ... إنك رجل عجيب . الآن فقط تذكرت ، ويرجع الفضل إليك فيما ذكرته

فقال هولمز : وكيف ذلك ؟

— لقد رأيت أمس فى الحلم ولدى يختال فى ثياب جديدة من حرير الشرق وعلى رأسه عمامة ، أى نعم عمامة ، وفى قدميه حذاء أصفر تعود أن ينتعله ؛ وكان صبوح الوجه مشرقه . فلما دنوت منه لأقبله ، لأننى فى الرؤيا كنت عالماً أنه مستخف وأننى أبحث عنه وأخشى عليه الخطر ، فأعرض عنى وقال :

— كيف تتركنى هكذا ؟ أتهدر دمى ؟ ألا تبحث عنى ؟ ألاتبذل جهدك ؟ . فبكيت ، فقال لى : ألا تعرف قاتلى ؟ ألا تعرف غريمك الذى اغتالنى ؟

فقلت : لا . قل لى من هو ؟

فقال : هو الرجل الذى تلقاه عصر هذا النهار هابطاً من مركبة الكهرباء في محطة باسكرفيل ... ثم غاب شبح ولدي بالسرعة التى ظهر بها

فلم يبد على وجه هولمز أى اهتمام ، ولكنه سأله فى هدوء :

— وهل صدقت هذا النذير وقصدت إلى موعد اللقاء ؟ أجاب : نعم

هولمز — فمن رأيت ؟

الهندى — رأيت ... آه ... إنى أختنق ... رأيت ابن أختى العوراء

فانفرجت أسارير هولمز ، وكأنه أفاق من غشية ثم استدرك قائلا :

— هذه أضغاث أحلام . إذا أنتك الرؤى بنبأ فتبينه قبل أن تتهم شخصاً قد يكون بريئاً

فقال الهندى : الأمر لك يا مستر هولمز ... ولكن هل تخدعنا الأرواح إلى هذا الحد ؟

فقال هولمز : لا رأي لى فى هذا . وإن كانت روح والد عملية لم تخدعه قط ... وضحك ... عليك الآن أن تذهب إلى عملك ودارك وأن توافينى فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى محطة باسكرفيل ، لتدلنى على المكان الذى لقيت فيه ابن أختك

فقال الهندى : مستر هولمز ... مستر هولمز نسيت شيئاً . لقد أعرضت فى أول الأمر عن محادثة ذلك الولد ابن أختى العوراء المترملة ، قائلاً بينى وبين نفسى : أيبقى الطالح ويذهب الصالح ؟ ما نفع هذا الوغد فى الحياة وهو جاهل متعطل ؟ ولكنه أقبل علىّ ... وكان أصفر الوجه ممتقعاً وقال لى وهو يتلجلج : هل استجد شىء فى الحادث ؟

فقلت : أى حادث ؟

قال : استخفاء ابن خالى

فقلت له : وهل يهمك أمره ؟

قال : كيف لا ، أليس بيننا دم القرابة يجرى فى عروقنا معاً ؟

فأخرجت من جيبى هذا الخطاب الذى تلوت ترجمته على مسامعك وقلت له :

— لو كنت تحبه حقاً ما حرضته على الفسق ، وزينت له ملاهى الشيطان . فبكى وتوارى عنى دون أية تحية

فتناول هولمز الخطاب الهندى ونهض يودع

الرجل وعاد هادئاً ، ثم تناول عدسته المكبرة وأخذ يفحص الخطاب فحصاً دقيقاً

ثم قال لى : علينا الآن أن نهض لنخرج .

أتعرف يا وطسن مبادئ الشيرومانسية ؟

قلت : أبداً

قال : لقد كان هذا الدجال تشيرو على نصيب كبير من الفطنة ، فحاز شهرة ومالاً . هيا ولنلبس ثياب الهنود وعمائمهم ولنتخذ مظهر العالمين بقراءة الكف

وبعد ساعة كنا نجوس خلال الشوارع تحت وابل من المطر . وقد تركنا الديك الرومى الحنيذ واليودنج وتخذ الخلوف المدخن تنعى من طبخها وهيأها . أى تنعى مسز تيرنر التى رأتنا نترك مأدبة عيد الميلاد فى أزياء غريبة . وما زلنا نسير كأننا على غير هدى — هكذا سبهللاً فى الواسع والضيق من مسالك لندن وجاداتها حتى بلغنا شارع ويلسو ، وهو الذى يربط كنجزواى بدورى لين ، ثم انحدرنا نحو الشمال وما زلنا نسير حتى بلغنا أولد بلانيد ستريت وهو من أظلم الطرق وأضيقها وأقذرها فوقف هولمز متردداً ثم دفع باباً صغيراً فاندفع ودخلنا فى حانة شمطاء ، فاستقبلتنا الساقية بابتسامة عريضة وسألتنا إن كنا نشرب الجعة دسمة ثقيلة ، أم نشربها خفيفة شقراء ، فطلب هولمز الأخيرة . ولمحنا فى أحد أركان الحانة شاباً أسمر اللون منثنياً على نفسه كأنه « كوبرا » غبراء تهتضم الفريسة التى طوت عليها أحشاءها . فشربنا من الجعة جرعة ، ثم نهض هولمز ودنا من الساقية ودفع لها ثمن المشروب وقال لها :

— أتودين أن تعرفى حظك بقراءة الكف ؟

فضحكت وقالت : لقد جاوزت السن التى أهتم فيها بحظى ، وليس لى الآن محبوب أترقبه أو أخشى فراقه

فقال هولمز : وكان مدهشاً فى تقليد الهنود عند ما يتكلمون الانجليزية : لا لا يا مسز تخطئين إذا كان علم الكف يكشف عن الحب وحده فانه دليل الحياة والعقل والأمراض والنجاح وضده أثناء العمر وما يصادف الانسان من السعود والنحوس ، ويكشف عن القضايا الكبرى وما يصيب المرء من حسن الحظ

فناولت المرأة يدها لهولمز فبدأ ينظر فيها بانعام وعند ذلك تحرك الشخص الأسمر المنطوى على نفسه وأخذ يصغى بانتباه

فقال هولمز : إن فى جوارك أو فى حاشيتك أو على مقربة منك شخصاً يهمه الاتهام فى قضية قتل خطيرة

فنظرت المرأة وسحبت كفها من يد هولمز بلطف ، فقال لها :

لا تهتمى فان هذا السر لايضيرك ولايسوؤك ، إنه بعيد عنك . قد تربحين فى حياتك المقبلة مبلغاً من المال عن طريق الحظ الحسن . وقد تشترين عقاراً فى مقاطعة ديرهام

فقالت : يالك من منجم صادق . إنها مقاطعتى وربى حيث ولدت وقضيت طفولتى وصباى فى مغانيها . ولا أزال أفكر فى العودة إليها ...

من الخير أن تجلس أيها السيد ، فسأحدد لك موعداً لنلتقى بحيث تسهب فى التنبؤ لى . فعاد هولمز إلى مقعده

ولم يكد المقام يستقر بنا حتى نهض الشخص الأسمر ودنا منا وحيانا بالهندية . ولشد ما كانت

دهشتي عند ما أجابه هولمز بالهندوستانى ، كأفضل مواطن نشأ فى مقاطعة كشمير ولم أكن قبل اليوم أعلم أن هولمز يجيد الهندية كأحد أبنائها

وسرعان ما مد الشخص الأسمر كفه لهولمز فأخذ ينظر فيها ثم قال له بالانجليزية :

حيث أننا جميعاً نجيد تلك اللغة ، فلنتكلم بها . ثم قال :

إنك ولدت فى الهند حتما ونزحت عنها فى سن صغيرة . وأنت يتيم الوالد ، وأمك الأرمل تعيش معك فى هذه البلاد ، وهي شوهاء عوراء ، ولكنها تحبك وتخلص لك . لم يسعفك الحظ لا فى المال ولا فى طلب العلم ، وعندك هوى شديد للنساء . ماذا أرى ؟ كان لك قريب يدانيك فى السن ويفوقك فى الذكاء والغنى . وهو جد بخيل ولكنى لا أراه الآن ... لا أراه على قيد الحياة . وأرى امرأة بينكما تدفعك إلى اغتياله وهى امرأة أجنبية ، لا تهمها حياتك ولا حياته . إن الجثة ...

فبكى الهندى ، وأجهش في البكاء وقال : أنا أعلم أن الجثة تكاد تتعفن ، لولا تلك الحقنة التى أفرغتها بين الجلد واللحم . إن الآلهة تعذبنى

فقال هولمز وهو ثابت الجأش كأنه صخرة لا تتحرك

لنترك التنجيم جانباً ... إننا أبناء وطن واحد أين تلك الجثة ؟

فقال الهندى : فى غرفة هنا فى شارع كورنوال باديستون حيث تقطن المرأة بولى التى أعشقها . لقد خنقته بيدى وهى تحرس الباب . فلم تنزف منه نقطة دم واحدة . وقد وضعناه معاً فى صندوق كبير

فقال هولمز : عليك الآن أن تغادر شواطىء هذه البلاد بأقرب فرصة

فقال الهندى : والجثة ؟

فقال هولمز : لا عليك منها . فأنا أتولى أمرها

فأخرج الهندى من جيبه حزمة من الأوراق المالية وقال : هاك بعض النقود التى وجدناها فى محفظته ، خذ منها ما تشاء أجراً على الخلاص من الجثة

فتناول هولمز النقود وقال له : هيا بنا .

ونهضنا . وخرجنا نضرب فى سواد الليل ، حتى عثرنا على « هانسوب كاب » فاتخذناها إلى أن وصلنا إلى المنزل الذى فيه الجثة فى الصندوق ، فكلفه هولمز بحمله ونقله ، ودعا المرأة إلى مصاحبتنا موهماً إياها أنها ستغادر البلاد مع صديقها وأنه سيتولى الخلاص من الجثة ، واتخذنا عربة من طراز فيكتوريا . حملتنا جميعاً ومعنا صندوق الجثة . وكان المطر قد ازداد انهماره ، حتى اضطررنا للالتجاء إلى قبو تحت سكة حديد لدجات هول ، وهو قبو مزدان بالقيشانى الأبيض اللامع ، حتى لكأنه ألواح من الجليد نشرت تحت الأرض على طول مائة ياردة طولاً وعرضاً وارتفاعاً .

لقد كان موقفاً غريباً حقاً ! ثلاثة رجال وامرأة وجثة .

وكان الهندى الجانى مستسلماً لهولمز الذى اعتبره منقذاً مخلصاً . أما الفتاة بولى فكانت من شر أنواع النساء الانجليزيات قلباً وقالباً ، فلم يزد هولمز على أن علم اسم والدها وموطن ميلادها

وقد قضينا هذه الليلة الغريبة أو الهزيع الأخير منها تحت القبو ، حتى إذا كان مطلع الفجر أمر السائق بأن يسير قدما إلى محطة ياسكرفيل ، التى تجتمع بها قطر من الترام لا عدد لها مقبلة وذاهبة إلى سائر ناحيات العاصمة .

وكان السهر والتعب وهم انتظار ما يأتى به الغد قد نالت منا جميعا ، ما عدا هولمز الذى كان أنشط ما يكون « منجم هندى » .!

وقضينا وقتا طويلا فى الطواف بشركات البواخر ، ليضمن الهندى وشريكته مرقدين فى باخرة مبحرة إلى أمريكا أو إحدى المستعمرات .

وكان هولمز هازلاً لا جاداً ، يقصد إلى تضييع الوقت أوفضيحة القاتلين . وكانت الفتاة الانجليزية بولى تقول بين حين وآخر : أرى أن هذا النهار لن ينتهى بخير أبداً .

فقال هولمز بانجليزية مضعضعة ليتقن تقاليد الهنود :

— ربما صحت الأحلام والنبوءات أيتها السيدة

وفى الساعة الثانية كان الجوع قد أخذ منا كل مأخذ ، فوقفنا فى شارع واترلو على مقربة من ميدان الطرف الأغر ، وإذا بالهندى يقول : «ضعوا على رأسى لحافاً أو غطاء سميكا ، فان البرد شديد

ولكن هولمز قال له : ليس البرد شديداً ولكن هذا خالك والد القتيل قد أقبل . ثم أخرج من جيبه قيد الحديد ووضعه حول يديه وقال لى : تناول رفيقته برفق ولين فتلك عادة معاملة السيدات . فأخرجت على كره قيداً آخر ووضعته حول يديها ونشط هولمز من عقاله ونادى بأعلى صوته « شامين لال ناوردجى » فالتفت إلينا الرجل ثم جرى إلينا فلم يتمرف علينا لولاأن قال له هولمز: ها هو ذا ولدك قتيلا فى الصندوق وغريمك وشريكته ، ووضع عمامته عن رأسه فأقبل الهندى الثاكل يقبل يديه وقدميه .

فقال له : الأولى لك الآن أن تلجأ إلى المفتش جريفين فقد طبخنا له الطبخة ، وما عليه إلا أن يأكلها . أما نحن فسنعود إلى مسز تيرنر لنشاركها فى التهام الديك المحشو بالأرز الياباني والأفاويه الهندية والزبيب الأناضولى والصنوبر الشامي واللوز الاسبانى والجوز التركى . فقد استحققنا هذه الأكلة التى تنتظرنا

فقال له القاتل : أيها الخائن الانجليزي

قال هولمز وهو ينفخ فى صفارته يستدعى الشرطة للقبض عليهما متلبسين :

— لئن كنت خائناً ، فخير من أن أكون قاتلا

فأجهشت بولى بالبكاء ثم ضحكت وقالت لمحبوبها الذى رمته فى أعمق الحفر :

— ألم أقل لك إن النهار لن ينتهى بخير ؟

وأقبل الشرطي وتكاثر النظارة . وانفلتنا إلى منزلنا فى ٤٠ بيكر ستريت

محمد لطفى جمعة

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الرغائب شارع الفلكى لباب اللوق
ومن المكتبات العربية المشهورة